

عندما زرت فنلندا لأول مرة العام الماضي، استقبلني - استقبالأرائعاً - صاحب الدعوة صديق الطفولة المهندس علي حلمي، ولأنه يعلم جيداً، بأن زيارتي من أجل السياحة، وضع لي برنامجاً لزيارة أهم الأماكن الأثرية والثقافية، وبالأخص المتاحف!! لذلك كانت زيارتنا الأولى إلى جزيرة حصن فنلندا المعروفة باسم «Suomenlinna» وهي مجموعة جزر - تتبع العاصمة هلسنكي - وهي حصن رادع ألي هجوم يأتي من البحر. وهذه الجزيرة بتحسيناتها الحربية، بما فيها من مظاهر تحصين وأسوار ضخمة، وبوابات فوالدية، بالإضافة إلى مجموعة متاحف حربية، تروي قصة تاريخ فنلندا العسكري، فهنا بنا نتعرف على هذا الحصن وما فيه: جزر للبيع الاصطيفبدأت الرحلة من ميناء صغير في مركز العاصمة هلسنكي أمام القصر الرئاسي، مع مجموعة من الزائرين، وهذه الرحلة البحرية، استغرقت حوالي ربع الساعة. وطوال الرحلة، وأنا معجب بكم الجزر الصغيرة المتناثرة حولنا، وتوقفت بنظري عند مجموعة من الجزر، مساحتها أقل من ألف متر مربع، وفي وسط كل منها منزل خشبي - على هيئة كُشك أوفياي صغيرة - ويشغل هذا البناء معظم مساحة الجزيرة!! كما يوجد قارب بخاري صغير مربوط بحبل، قيل لي: إن فنلندا بها آلاف الجزر الصغيرة، كنيسة بال تماثيل أو صوروصلنا إلى جزيرة الحصن، كان كنيسة قديمة تراثية، وعلى الفور قررت دخولها وتصوير الكنوز التي بداخلها؛ ظناً مني إنها تتشابه مع كنائس مدينة كراكوف في بولندا التي تحدثنا عنها سابقاً؛ ولكن المفاجأة كانت صادمة!! فكنيسة سوى: مقاعد خشبية طويلة للزائرين ال يتناسب مع حجم الكنيسة ومكانتها!! وكرة أسياخ حديدية بها شموع مضاءة، ولوحة تعريفية بتاريخ المبنى . هذا وصور القديسين والاباء والقساوسة، وأين الأيقونات والنقوش والزخارف . وأين وأين . سمعت ثلاثة أسباب تبرر هذه الظاهرة: الأول، إنها كنيسة داخل حصن حربي، يُصلي فيها الجنود المدافعون عن البلد؛ لذلك ال نريد لفت أنظارهم أو انشغالهم بأشياء داخل الكنيسة، وعن مهمة الدفاع عن الوطن، فيعود إلى أن أهل فنلندا قديماً، كانوا يتعاملون مع الدين بصورة روحية عميقة، إلخ، سواء بالنحت أو الرسم أو التصوير أو الزخرفة!! أما السبب الثالث والأخير - والذي يعضد السبب الثاني - فيقول: إن هذه الكنيسة كانت في الأصل أرثوذكسية، إلى المذهب اللوثرى الخالي من التماثيل الايقونات والزخارف . إلخ، وهو التفسير المنطقي تاريخياً!! المتحف الحربي وملحقاته خرجنا من الكنيسة، جمعت مقتنيات كثيرة، حول قادة فنلندا وجنودها في الحروب، التي خاضتها. ومن هذه المقتنيات، مستطيل مثبت عليه مجموعة كبيرة من النياشين العسكرية، التي نالها القادة العسكريين، مع مجموعة صغيرة من صور حقيقية لأصحاب البطولات، فعلى سبيل به الآتي: ملابس العسكرية الكاملة، وشهادتين رسميتين، وأربعة نياشين، وحافظة نقود، وسلسلة مفاتيح، وسلسلة أخرى بها القطعة المعدنية التعريفية، والتي بها بيانات من يرتديها من الجنود أثناء الحروب!! كل هذه مقتنيات عادية، لتعرض مقتنياته بهذا الشكل المميز؟! وقبل أن أسأل، شاهدت الدليل بنفسى!! إن هذا البطل، كان يحارب ويقاوم بأطراف صناعية سفلية، حيث بُترت قدماه في الحرب، ورفض الخروج من العسكرية، فتم تركيب أقدام صناعية له، مع مجموعة صور فوتوغرافية تبين تركيبها، لذلك كان يجب أن توضع مقتنياته بالمتحف، لاحظت أيضاً مجموعة من التماثيل البشرية بحجمها الطبيعي، مرتدية الملابس العسكرية باختلاف نوع الزي، تبعاً لاختلاف نوع السلاح!! ومسألة الزي العسكري، حيث وجدت مجموعة كبيرة من مقتنيات القادة العسكريين معروضة، وبالأخص «البدلة العسكرية الكاملة»، وهذه المقتنيات موجودة في غرف زجاجية متجاورة على جانبي قاعة المتحف. والملفت للنظر أيضاً في هذه الغرف، الاهتمام الواضح بالمرأة!! حيث وجدت مجسمات لمجنات بالملبس العسكرية، ومنشوراتهن العسكرية. فيها نماذج لأسلحة حقيقية، مثل السيارة المدرعة، وعربة نقل طعام الجنود أثناء الحرب، رواق به أربعة عشر تمثالاً نصفياً للقادة العسكريين. عليها ملخص لسيرة صاحب التمثال. وفي القاعة، وجدنا نماذج مصغرة للسفن الحربية، والأسلحة والملابس والأدوات المستخدمة في الحروب أوقات الشتاء، معروض فيه مقتنيات الجندي الكاملة أثناء الحرب في الشتاء، ومن أهمها: الجوارب والقفازات، والسجائر والبايب وأعواد الثقاب، وأدوات الطعام المحمولة، مثل: علبة الطعام المغلقة بإحكام - بينهما . إلخ!! ومن الأسلحة المميزة المعروضة، نماذج من المسدسات، ومعلقة وشوكة معادون فصل والأمر نفسه بالنسبة للسفن والدبابات. المعايشة العسكرية الأولى بها مجموعة دوايب بجوار بعضها البعض، ولكنها خاصة بالجنود والضباط. ومن الواضح أنها الدوايب الحقيقية لفرقة من الجنود - رغم ترميمها وإعادة دهانها - وما على الزائر إل ال أن يفتح أي دوايب، ليجد وصور أدواته التي كانت موجودة في تجعلك تتعائش عسكرياً من الجنود في أدق خصوصيات حياتهم الإنسانية!! مربعات داخل دوايب كبير مفتوح، والخوذة أو الطاقية العسكرية «البيرييه»، هي الملابس الحقيقية للجنود أصحاب الصور الموجودة في المربعات!! وألنهم جنود فقط - وليسوا ضباطاً كباراً - لم توضع أشياءهم في معروضات المتحف، بل وضعت هنا، لقد لاحظت أن في الغرفة مجموعة من المراتب الطولية، فكيف تحقق هذا الأمر!! شديداً من الزائرين حول هذه المراتب، مع سماع صيحات الإعجاب. وجدت أحد

الزائرين مرتدياً الخوذة والملبس العسكرية الموجودة في أحد المربعات، ووقف يشاهد نفسه في المرآة بإعجاب!! هنا ظننت أن هذا الزائر عبث بمقتنيات المتحف، واستهجن فعلته!! ولكن هذا الاستهجان تالشى عندما وجدت ألماً به زي عسكري معين يريد ارتداه؛ ألن كل من يرتدي شيئاً، وهو معاشة الشباب والجيل الحالي وترويجاً لها وألهميتها للبالد!! فكم من شاب ارتدى الملابس العسكرية، التي ارتداها أباه وأجداده، وتمنى أن يكون فرداً من القوات المسلحة!! هذا الشعور القومي، وهذا التعايش الطريف، جعلني أخوض التجربة، فقممت بارتداء أول ملبس عسكري وجدتها أمامي، والتقطت بها صورة للذكرى!! خرجنا من قاعات المتحف إلى شوارع الجزيرة، وجلسنا في استراحة رائعة الجمال، فوجدته يقول: إن الجزيرة غير مستغلة سياحياً كما يجب!! فقد كان هناك استبيان لمحافظة هلسنكي عام 2017، حول كيفية تطوير وسائل الإرشادات لزائري الجزيرة، فكتبت وجهة نظري، بضرورة جعل الجزيرة متحفاً مفتوحاً، بداية من كشك التذاكر على أن تحملاً لتذكرة صورة الحصن! والمركب الذي يستقله الزائرون من الميناء إلى الجزيرة، يرتدون الملابس التراثية، التي كانت موجودة في العصور الوسطى، مع وجود أسواق قديمة للاشغال اليدوية، أيام كانت الجزيرة حصناً عسكرياً في الماضي!! هذا ما رواه لي صديقي أثناء الاستراحة. وعندما خرجنا للانتقال إلى آخر متاحف الجزيرة، دُهِشنا من هول المفاجأة التي رأيناها!! فقد شاهدنا جنديين يسيران أمامنا بملابس جنود العصور الوسطى، ذات خنجر في المقدمة، وهي من النوع نفسه المستخدم في القرون السابقة!! كما وجدتهما يقفان وسط الزائرين ليتم التقاط الصور التذكارية معهما!! فالتفت إلي صديقي، قائلاً: الحمد لله إن فكرتي التي ذكرتها في استبيان البحث الميداني منذ عامين، تم تطبيقها، وشاهدتها بنفسى!! الجميل في الأمر، إننا شاهدنا تأكيداً آخر على تطبيق الفكرة، مع تطويرها؛ تمثلت في وجود فتيات بملابس العصور الوسطى، وهي: الفستان الطويل ذي الطبقات الكثيرة، مع البرنيطة المربوطة بشريط ستان تحت الذقن! حتى مساحيق التجميل المستخدمة في «المكياج»، كانت بأسلوب القرون الماضية!! هذه الفتيات، مهمتهن تمثلت في: قيام كل فتاة بنجميع الأطفال المصاحبين لعائلاتهم أثناء زيارتهم السياحية للجزيرة، وتقف الفتاة وسطهم بملابسها التراثية، وتبدأ في رواية تاريخ الجزيرة، وتاريخ حروبها بأسلوب بسيط يفهمه الأطفال، ويجذبهم بصورة مشوقة نحو تاريخهم وأثارهم!! متحف الغواصة الحربية